

صفية بنت حيي

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

obeikandi.com

صفية بنت حيي رضي الله عنها

من هي؟

هي صفية بنت حيي بن أخطب بن شعبة..... بن النضير بن النحام بن تحوم، من بني إسرائيل وسبط (هارون بن عمران). أمها (برة بنت سموأل).

قال ابن زبالة في «المنتخب»: إن اسم صفية رضي الله عنها هو: حبيبة، ولكنها سميت صفية؛ لأنها كانت صفية رسول الله ﷺ يوم خيبر، وكانت كنيته (أم يحيى).

نشأتها:

تروي لنا صفية رضي الله عنها: أنها ما رأت في طفولتها من حقد أبيها وقومها على الإسلام وعلى النبي ﷺ عندما قدم إلى المدينة.

قال ابن اسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: «كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه».

قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف إذا عليه أبي (حيي بن أخطب) وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين⁽¹⁾، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهويني⁽²⁾ قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله.. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت.

(1) أي في ظلمة الليل.

(2) مشية فيها فتور وضعف.

رحيل من المدينة:

وَوَادَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْيَهُودِ، وَكُتِبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ كِتَابًا، وَكَانُوا ثَلَاثَ قَبَائِلَ: بَنُو قَيْقَاعَ؟، وَبَنُو النَّضِيرِ، وَبَنُو قَرِظَةَ.

كانت صفية وأبوها حيي بن أخطب من بنى النضير، وكان أبوها من زعماء القبيلة وكبرائها.

وقد نقض اليهود عهدهم مع النبي ﷺ، وحاول بنو النضير قتل النبي ﷺ وهو مستند إلى جدار حائط من بيوتهم؛ فلما ذهب أحدهم عازماً على أن يلقي على رسول الله ﷺ صخرة من فوق الجدار؛ أخبره جبريل بذلك، وقام من توّه ثم بعث إلى بني النضير يأمرهم بالخروج من المدينة، ولكنهم تمنعوا، وبعث رئيسهم حيي بن أخطب لرسول الله ﷺ يقول: (إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك).

فأدى ذلك إلى أن فرض المسلمون عليهم الحصار حتى أجلوهم عن المدينة.

* وكان من أشرفهم الذين ساروا إلى خيبر: (سلام بن أبي الحقيق، وحبي بن أخطب، وكنانة بن الربيع، فلما نزلوها دان لهم أهلها).

في خيبر:

فكانت صفية من يهود خيبر، وكان أبوها سيدهم المطاع، فعاشت معهم في رعد ونعيم. ولما اشتد عودها كان أشرف القوم يطمعون في الزواج منها، فتزوجها سلام ابن أبي حقيق، ثم خلف عليها كنانة بن أبي حقيق، (وكانا من شعراء اليهود).

مقتل حيي بن أخطب:

نقضت بنو قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ، وناصرهم حيي بن أخطب، وكان ممن يؤلب القبائل العربية واليهودية على محاربة الإسلام ونبيه ﷺ، وهو الذي أقنع بني قريظة بضرورة نقض العهد، وهزمت بنو قريظة، وحكم على رجالهم بالقتل لخيانتهم.

فلما أقبلت بنو قريظة آتي به - أي حيي بن أخطب - مكتوفاً بعد، فقال حيي للنبي ﷺ: أما والله ما لمت نفسي على عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذله، فأمر به النبي ﷺ وضربت عنقه... ثم إنه أقبل على الناس قبل تنفيذ حكم الإعدام، وقال لهم: أيها الناس.. إنه لا بأس بأمر الله.. كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه.

وفي السيرة النبوية أيضًا: لقد تجلد حيي، وتقدم لتضرب عنقه حتى لا يشمت فيه شامت، وهو يعرف أنه على باطل، ظالم لنفسه... ومع هذا يموت على ذلك، والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير.

كما أن عداوة حيي للرسول ﷺ باعثها الحسد والحقد.

* لقد اعترف أبو صفية بأن الله قد خذله بمقولته هذه قبل موته، واعترف أيضًا أنه لم يكن مع الله، وإنما كان مع الشيطان.

زواج صفية من رسول الله ﷺ:

توجه النبي ﷺ إلى خير في العام السابع الهجري، وكانت لهم حصون منيعة لا يقدر على اقتحامها جيش إلا بجهد جهيد وسلاح عتيد. وتم نصر المسلمين على خير وجه، وأحرزوا الكثير والكثير من أموال اليهود، وسبوا الكثير والكثير من النساء والزراري.

* وكانت صفية بنت حيي من السبايا، جاء بها بلال بن رباح من حصن أبي الحقيق ومعها بنت عم لها، فمر بهما على القتلى وقد تناثرت أشلاؤهم هنا وهناك، فلما رأتهم المرأة التي مع صفية صاحت صياحًا شديدًا، ولطمت وجهها، وحث التراب على رأسها، وفعلت بنفسها الأفاعيل، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «أغربوا عني هذه الشيطانة» فأبعدوها عن ساحته.

وأما صفية فقد كانت تتميز برباطة الجأش، فلم تفعل مثلما فعلت صاحبته، بل تماسكت وكظمت غيظها... فعرف الرسول قدرها فرضيها لنفسه.

وقد عاتب النبي ﷺ بلاً على ما فعله بهاتين المرأتين فقال: «يا بلال، أنزعت منك الرحمة حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما!!»⁽¹⁾.

وقد حاز النبي ﷺ صفية لنفسه تكريماً لها؛ فهي سيدة قومها وبنت سيدهم، فإكرامها نخوة عربية... وقد أبصر فيها سماحة تدعوها إلى الإسلام، ورأى في وجهها وجاهة تدل على سلامة قلبها وحسن استقبالها لهذا الدين القيم⁽²⁾.

(1) تاريخ الطبري 2/ 302.

(2) مؤمنات لهن عند الله شأن، دكتور محمد بكر إسماعيل.

بعينيك؟ قالت: قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم كأنَّ قمرًا وقع في حجري فلطمني، وقال: أتريدين ملك يثرب.

قالت: وما كان أبغض إليَّ من رسول الله ﷺ؛ قتل أبي وزوجي، فما زال يعتذر إليَّ وقال: «يا صفية، إن أباك ألب عليَّ العرب وفعل وفعل» حتى ذهب ذلك من نفسي (1).

* كان زوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق صاحب حصن القموص، أعظم حصن في خير، وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد نضال عسير، وجيء بكنانة حيًّا، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله النبي ﷺ عنه فجحد أن يكون يعرف مكانه، فقال ﷺ: أرايت إن وجدناه عندك أأقتلك؟ قال: نعم.

فلما اكتشف مخبأ الكنز عنده دفعه النبي ﷺ إلى محمد بن سلمه فضرب عنقه.

* بذلك يكون قد اقتصَّ الله تعالى منه ما فعله بصفية رضي الله عنها.

صفية في بيت النبوة:

عادت صفية رضي الله عنها مع النبي ﷺ إلى المدينة بعد أن بنى بها في الطريق، وكانت في قمة السعادة؛ لأنها ستكون واحدة من أمهات المؤمنين.

* عن آمنة بنت قيس العقارية قالت: أنا إحدى النساء اللاتي زفن صفية يوم دخلت على رسول الله ﷺ، فسمعتها تقول: ما بلغت سبعة عشر سنة يوم دخلت على رسول الله ﷺ (2).

الكريمة صاحبة القلب الرقيق:

ولما انتقلت صفية رضي الله عنها إلى دور النبي ﷺ كانت تحمل كل الخير لأخواتها (أمهات المؤمنين)، فقد بدأت بتقديم الهدايا لهن؛ ولكنها بدأت بريحانة رسول الله ﷺ ابنته فاطمة، فقدمت لها هدية غالية.

* عن ابن المسيب قال: قدمت صفية وفي أذنيها خرصة من ذهب، فوهبت لفاطمة منه ولنساء معها (3).

(1) رواه الطبري، وصححه الألباني.

(2) صحاحيبات حول الرسول، محمود المصري.

(3) رواه بن سعد، وقال رجاله ثقات.

(3) رواہ مسلم.

صفية الصافية:

وجد العديد من المواقف التي تدل على عقل صفية وحلمها وصفاء قلبها من هذه المواقف:

- كانت صفية تجيد صنع الطعام؛ لأنها كانت من قوم يعدون في بيوتهم الموائد الشهية ذات الأصناف المتعددة؛ فصنعت يوماً طعاماً للنبي ﷺ، فما أن مد يده إليه حتى أخذت الغيرة عائشة رضي الله عنها فأمسكت الإناء فكسرت به ما فيه، فلما رأت عائشة سوء صنعها وتحلم النبي ﷺ عليها راجعت نفسها، واعتذرت عما بدر عنها للرسول ﷺ ولصفية رضي الله عنها، وقالت: يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (إناء مثل إناء وطعام مثل طعام) (1).

- عن زيد بن أسلم: أن نبي الله في وجعه الذي توفي فيه قالت صفية بنت حيي: والله يا نبي الله، لوددت أن الذي بك بي، فغمزها أزواجه فأبصرهن فقال: «مضمضن»، قلن: من أي شيء؟ قال: من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة (2).

ومن هنا كانت أم المؤمنين صفية ذات سريرة صافية وعلانية نقية، فقد أحبت رسول الله ﷺ وصدقت في حبها لله عز وجل، فجاءت تصرفاتها نابعة من معين الصدق والوفاء، وشهد لها النبي ﷺ بالصدق.

- وها هو موقف آخر يدل على صفاء النفس «قال أبو عمر بن عبد البر: روي أن جارية لصفية أتت عمر بن الخطاب، فقال: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود فبعث عمر يسألها، فقالت: أما السبت فلم أحبه منذ أن أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً، فأنا أصلها، ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: الشيطان. قالت: فاذهبي فأنتي حرة» (3).

لقد كانت رضي الله عنها تستطيع أن تنتقم لنفسها، ولكنها تعلمت العفو عند المقدرة من صاحب الخلق العظيم محمد ﷺ.

(1) رواه أبو داود والنسائي.

(2) أخرجه بن سعد ورجاله ثقات ولكنه مرسل.

(3) الاستيعاب.

(2) صحابیات حول الرسول..

ولم تنس فضل الصدقة وما تعود به على صاحبها من الخير، فكانت تحث الناس عليها وتكثر من اللذو والإنفاق ما وجدت إلى ذلك سبيلاً .
وفي شهر رمضان من سنة خمسين وافتها المنية، وكانت مقبرة البقيع مستقرها رحمة الله تعالى عليها.

خواطر وعبر:

(1) من العجيب أن نجد إحدى أمهات المؤمنين من أصل يهودي، وهذا الأمر لا بد أن يكون له مغزاه، ويمكن أن نستنتج بعض المعاني من ذلك:
- أن الإسلام جاء للناس أجمعين، ولا يعادي إلا من عاداه.

- أن عداوتنا لليهود تنتج من شرهم وأفعالهم لا من نسبهم؛ فلقد أخذ النبي ﷺ يرسّخ في أمهات المؤمنين هذه القيمة في العديد من المواقف، فها هو ينهى عائشة عن اتهام صفية بنت حيي بأنها يهودية، وها هو يهجر زوجته زينب بنت جحش من أجل نفس السبب.

فالميزان الوحيد الذي يوزن به البشر في الإسلام هو التقوى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

- أن اليهود على قدر عداوتهم وبغضهم للمسلمين إلا أن فيهم فئة قليلة مؤمنة، وقد آمن بعضهم، وأشار القرآن إلى ذلك في سورة آل عمران عندما قال:
﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَسْتُرُونَ بِكَائِنَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 199].

فإن وجود أمٍّ للمؤمنين لنا من أمة اليهود لخير دليل على ذلك.

(2) إن الصفات الشخصية للسيدة صفية رضي الله عنها صفات مبهرة رغم أنها نشأت وسط الأحقاد، إلا أن قلبها يفيض بالصفاء والنقاء، وفي المواقف التي ذكر منها أكبر دليل على هذا.

(3) في الحديث الذي جاء مع صفية وقال النبي فيه للشابين على رسلكما إنها صفية» دليل على مكانة صفية رضي الله عنها، وأن النبي ﷺ لا يريد أن يضعها موضع شبهة، وفي

ذلك عبرة لكل زوج في أن يحافظ على وضع زوجته وصورتها أمام الناس وكذلك فيه معنى آخر:

وهو أن اسم المرأة ليس بعورة في الإسلام كما يظن بعض الناس ذلك فيكنى عن زوجته، وأعتقد أن في هذا احتراماً لذاتية المرأة واحترامها.

(4) إن صغر سن صفية رضي الله عنها عند الزواج من النبي ﷺ (17 سنة) وكانت قد تزوجت اثنين من قبل.. هذا يدل على أنها أوتيت عقلاً وحكمة مبكرين.

وإن المواقف التي مرت بصفية وانقلاب حياتها وتحويلها هذا التحول الشديد والسريع قد زاد - في اعتقادي - عمرها أعماراً، وأثقل شخصيتها وزادها حكمة وتؤدة وحلماً.

(5) موقفها عندما كسرت لها السيدة عائشة الطبق.. موقف عظيم يدل على شدة الحلم؛ فنحن لم نسمع بم ردت عليها صفية رضي الله عنها، ولو كانت ردت لذكر الحديث ذلك، ولو ردت لكان معها كل الحق.

(6) إن صلتها بأهلها بعد إسلامها وبرّها لهم لأكبر دليل على أنها تحمل قلباً كبيراً هفوفاً عطوفاً، ومشاعر تموج كموج البحر في طهارته ومقاومته لكل نجس.